مهضومة الحقوق في عهد الرومانتيكيين ومضطهدة من طبقة الإقطاعيين والنبلاء. ولكن هذه الطبقة الوسطى التي ساعد أدب الرومانتيكيين على صعودها وتمكنها من التغلب على خصومها لم تلبث أن أصبحت متنكرة ـ كما أشرنا من قبل ـ لمبادىء العدل والمساواة والإخاء، ومشكّلة لطبقة أرستوقراطية طاغية جديدة، وهذا ما جعل الواقعيين النقديين يناصبونها العداء ويزيحون اللثام عن بشاعتها وآفاتها وأمراضها التي استفحلت.

ولعل أخطر هذه الأمراض ذلك المرض الذي أصاب العلاقات الإنسانية الحميمة وأوشك أن يقضي عليها قضاء لا هوادة فيه. وقد اهتم الواقعيون النقديون بتصوير أعراض هذا المرض في إنتاجهم اهتماماً كبيراً، وخاصة «بالزاك» و«جي دي موباسان» و«دوستويفسكي».

إن أعمال «دوستويفسكي» في جملتها تدور حول انتقاد الأوضاع الاجتماعية ووصف تلك الهوة المرعبة التي انحدر إليها الإنسان في ظل ا لنظام الأورستوقراطي البورجوازي، فراسكولنيكوف كان جلاداً، ولكنه في الوقت نفسه كان ضحية لتلك الأفكار العدمية التي انتشرت في الأوساط الاجتماعية البورجوازية، ومؤداها أن العقل يستطيع أن يستوعب الجريمة ويبررها ويقوم بتنفيذها. وتحكيم العقل على هذا النحو هو الذي يهاجمه «دوستويفسكي» حين يعرض العناصر اللا عقلية التي تعمل عملها في إحباط مؤامرات العقل في نفسية «راسكولنيكوف»[٨].

والشاب «ميشكين» الطيب في رواية «الأبله»، الذي أصيب بداء الصرع[٩]، يمتاز بالعفوية الساحرة، والصراحة الطفولية، ويحب الأطفال ويتخذهم أصدقاء له بدلاً من الكبار، ويشفق على البائسين الذين تنكر لهم المجتمع إشفاقاً كبيراً، ولكن سلوكه هذا يعد في نظر الآخرين ـ الذين يعتنقون مبادىء الأرستوقراطيين ويتخلقون بأخلاقهم ـ ساذجاً أو مجنوناً شاذاً. ولهذا فإنهم يسخرون منه، ويستخفون بسلوكه وتصرفاته التي لا تناسب «حكمتهم» المزعومة.